إبراهيم بن آزر - عليه السلام
ورحلته إلى أرض الشام

إبراهيم: اسم عربيٌّ عتيق، ذكرت له المعاجم العربية سبعة أوجه في لفظه:
إبراهيم، وإبْراهَم، وابْراهَم، وابْراهُم، وإبْراهام، وإبْرَهَم، وإبراهوم.

قلتُ: وأزيد عليها صورتين: أبراهم، وأبراهام، وهما صورتان في اللهجة الكنعانية العتيقة.

وصورة «إبراهام» هي قراءَة هشام بن عمار عن ابن عامر الشامي أحد القراء السبعة.

وقال البيضاوي في «التفسير»: قرأ ابن عامر: «إبراهام» بالألف، جميع ما في سورة البقرة.

وهمزة «إبراهيم» في الأصل مفتوحة، وكسرت في اللهجة القرآنية، وقلبت الألف ياء (ألف أبراهام الثانية) احتذاءً بإسماعيل وإسرائيل.

قلت: هو عربي عتيق؛ لأنه مركب من لفظين: أب - رام. أو «أب راهام» ومعناه: «أبو العلوّ»، أو «الأب المكرّم»، أو «أبو الجمهور»، أو «الأب العطوف».

وقول النحويين في إعرابه: «ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة» إذا أرادوا بالعجمة: غير العربي، فهو خطأ. وإذا وضعوه في منزلة الاسم الفارسي، والرومي، فهو خطأ. فالعجمة في «إبراهيم» أنه جاء على لهجة مخالفة للهجة العربية التي نزل بها القرآن، مع أنها لهجة عربية عتيقة. وكانوا يرون اللهجة الآراميّة أعجمية؛ لاختلافها عن اللهجة العربية القرآنية، وكانت غير مفهومة عندهم، ولكن عدم فهمك لهجة قوم لا يدلُّ على عجمتها. ونحن اليوم لا نفهم لهجة المغربيّ العاميّة، مع أنها مكونة من كلمات عربية، يلفظونها بصيغة غير مفهومة لدينا.

لعلهم أخذوا كلمة «أعجمي» من قوله تعالى: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ﴾ عندما قال القرشيون: إنما يعلّم محمداً بشرٌ كان يقرأ التوراة

والإنجيل، وهما مكتوبان باللهجة العربية الآرامية/ السريانية، فالعُجْمة في الآية، تعني: عدم الإبانة.. ولم يكن رسول الله ﷺ يعرف لغة عربية غير اللغة القرشية، أو لهجات العرب المعاصرة والمجاورة في قلب الجزيرة، والتي لا تختلف عن القرشية إلا في حروف قليلة، والتي فُسّر بها قول رسول الله ﷺ: «نزل القرآن على سبعة أحرف».

والخلاصة: أن علماء اللغة في العصر الحديث، اتفقوا على إعطاء اللهجات التي تكلم بها الكنعانيون والآشوريون والآراميون.. إلخ اسم: «اللهجات العربية العتيقة»؛ لأنها تشترك مع عربية القرآن في كثير من القواعد والجذور اللغوية، وحصل الاختلاف بسبب تباعد الأزمنة، وسنة التطور، والله أعلم.

هذا وقد أُعطي إبراهيم ـ عليه السلام ـ في العصر الإسلامي لقب: «خليل الله»، ففي القرآن: ﴿ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلاً ﴾.. ثم اختصره الناس فقالوا: «الخليل»، وأطلقوه على اسم المدينة. وكانت في البداية «مدينة الخليل»، فحذفوا «مدينة»، وبقيت الخليل. وقيل: إنَّ لفظ «خليل» أصلها «خلِّ إيل»، و«إيل» هو الله. والله أعلم.

• والمرجح أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ عربي أموري من العرب الشاميين الذين حكموا العراق مدة 270 سنة، وأسسوا فيه الدولة البابلية. وأما القول بأنه آرامي، فهو خطأ؛ لأن الآراميين ظهروا بعد إبراهيم بنحو ثلاثة قرون.

• ذكرت مصادر نقلاً عن أهل التوراة أن موطنه الأصلي في «أور»(1).

ونحن ـ العربَ ـ نقول: إن موطن إبراهيم ـ عليه السلام ـ، بلدة اسمها «كُوثَى».

قال ياقوت الحموي في «معجم البلدان»: وهي بلدة في سواد العراق في أرض بابل. وقال: كُوثى العراق كوثيان: أحدهما كوثى الطريق، والآخر كوثى ربّى، وبها مشهد إبراهيم الخليل، وبها مولده.

وهما من أرض بابل، وبها طرح إبراهيم في النار، وروى عن علي بن أبي طالب أنه قال: مَنْ كان سائلاً عن نسبنا، فإننا نَبَط من كوثى.

---

(1) في العراق. تقع أطلالها غربي مدينة الناصرية على بُعْد ثمانية أميال. وشمال البصرة بنحو 120 ميلاً، ويطلق عليها الأهلون: «تل المقيّر»، و«أور» كلمة سومرية بمعنى «مدينة»، وكانت مركز عبادة القمر في العراق.

وسأل رجل علياً: أخبرني عن أصلكم معاشر قريش؟ فقال: نحن من كوثى. وقال ابن عباس: نحن ـ معاشر قريش ـ حيٌّ من النبط من أهل كوثى.

ومراد القولين: أن أبانا إبراهيم ـ عليه السلام ـ كان من نبط كوثى، وأن نسبنا ينتهي إليه.

والنبط في العرف العربي: هم فلاحو العراق.. ويختلفون عن الأنباط.

وقلتُ: نحن العرب؛ لأن إبراهيم أبو العرب، وهم أدرى بموطن أبيهم، وقد خاطب الله العرب جميعاً فقال: ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ ﴾، ولا يستطيعُ أحدٌ أن يثبت نسبته إلى إبراهيم كما يثبتها العرب. وليس هناك عرقٌ حفظ نقاوة عرقه، كما حفظها العرب.. ولم يكن ذلك باختيارهم وإرادتهم، وإنما جاء ذلك بفعل الواقع.

فهذه جزيرة العرب، لم تخلُ يوماً من العرب، هاجر مَنْ هاجر من العرب إلى خارج الجزيرة العربية، ولكنَّ الجزيرة لم تخلُ يوماً منهم، لم يأتهم غازٍ شرّدهم وأبعدهم عن أرضهم، وإنما كان الغزاة في بعض مواطن الجزيرة يأتون في صُور جند يسكنون في قلاعهم إلى أن يأتي مَنْ هو أقوى منهم فيخرجهم.. وبقيت جهات من جزيرة العرب لم يغزها أجنبي، ولم تستقرّ فيها حاميات أجنبية مثل الحجاز ونجد، وجزء كبير من اليمن.

لقد عاش الأحباش والفرس في جزء من اليمن، وليس كل اليمن، وحملة أبرهة إلى مكة دمّرها الله بالطير الأبابيل قبل أن تصل إلى البيت الحرام. فلم يعرف التاريخ الصحيح أن غزاة من غير العرب استقروا مدة قصيرة أو طويلة في الحجاز ونجد..

فإذا قال العربُ: نحن أبناء إبراهيم وإسماعيل، فإنك تجدُ ألف دليل على صدق قولهم.. ولكن الآخرين الذين يزعمون الانتماء إلى إبراهيم، فإنك تجد ألف دليل على كذبهم، وقد تأتي الأدلة مما سطرته أيديهم؛ فهم الذين قسموا خلق الله إلى ثلاث فئات: أولاد سام، وأولاد حام، وأولاد يافث.. وجعلوا لكل فئة لوناً، وأقحم اليهود أنفسهم في أولاد سام بن نوح كما جعلوا العرب من أولاد سام بن نوح. وفي التقليد اليهودي أن أولاد يافث (يافث كلمة كنعانية معناها جميل، ومنها

اسم مدينة يافا) كانوا من الشُقْر. وأن الحاميين هم أهل أفريقيا، يغلب عليهم اللون الأسود، وأن الساميين سمر الألوان.. فإذا عرضنا العرب واليهود على هذه المقاييس التي وضعوها، فأيُّ الجنسين يغلب عليه الشبه بالساميين؟ وأيهما يغلب عليه الشبه بأولاد يافث؟ بل أيهما يغلب عليه اللون الأشقر والعيون الزرق؟.

قد يُقال: إن اللون الأشقر جاءَهم من الاختلاط والتزاوج: ولكن اليهود كانوا يعيشون في مجتمعات مغلقة، فلا يتزوج اليهودي إلا من يهودية، وقد تتزوج اليهودية من غير اليهوديّ، ولكن أولادها لا يعدّون يهوداً..

لقد صدق الله فيما أخبر، وهو العالم بالأنساب والأديان، هو الخالق، وهو منزل الرسالات؛ حيث قال: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾.

في هذه الآيات من سورة آل عمران (65 ـ 68) إشارات تاريخيّة دالّة وحجج فيصلية حاسمة، أيدتها الدراسات التاريخيّة الموضوعية البعيدة عن الهوى.

وأقوى حجة في ذلك، قطع الصلة بين اليهود واليهودية وبين إبراهيم، وهو قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا ﴾؛ لأنَّ اليهودية فرقة نشأت في القرن الثالث قبل الميلاد. فإن كانت اليهودية ديناً، فإبراهيم ليس يهودياً؛ لأن اليهودية جاءَت بعده بأكثر من 1500 سنة. وإن كانت اليهودية نسباً، فالنسب مقطوع؛ لأنهم يزعمون أن «يهوذا» ابن يعقوب، وفي نسبة إبراهيم إليه، تكون نسبة الأب إلى الابن. وإن كانت اليهودية أرضاً، فإبراهيم لا ينتمي إلى هذه الأرض.. حيث شبَّ وكبر ونبّئ في «كوثى» بالعراق.

وفي قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا ﴾ يؤكد ما قاله المؤرخون في العصر الحديث: إن اليهود عصابة لا يجمعها نسب، نشأت في ظل الحكم الفارسي للعراق،

وأرادت أن تخلق لها عُمقاً تاريخياً، فاختارت أشرف الأنساب، وادعت النسبة إلى إبراهيم، ثم إلى قوم موسى، فداود وسليمان، واختلقت أحداثاً جعلت مسرحها فلسطين.

وقد أثبت المسح الأثري بطلان كلّ الروايات التوراتية.

وفي قوله تعالى: ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ إثبات النسب النبوي المحمدي إلى إبراهيم، وإثبات نسبة العرب إلى إبراهيم، فهم الأقرب إليه ديناً ونسباً. . ولذلك قال الله تعالى: ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ﴾.

وسوف نتوسع في مناقشة قصة يهود في فصل قادم، عندما نتحدث عن الغرباء الذين مرّوا بفلسطين.

• وقد عنونا قصة إبراهيم - عليه السلام - بنسبته إلى أبيه آزر، وليس «تارح» كما تذكر التوراة؛ ذلك أن القرآن قال: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ ﴾، وأما ما ذكره المؤرخون العرب - بناءً على ما في التوراة -، فهو خطأ مطلق؛ فإن من المقطوع به عند المسلمين أن التوراة والأناجيل قد دخل إليها تحريف كبير، فلم يعد مجال للوثوق بما فيها من النصوص. ومن العجيب أن بعض مفسري القرآن ساروا في ركاب المؤرخين، فادعوا أن اسم أبي إبراهيم هو «تارح»، وزعموا أن آزر هو عمه، ولعلّ الذي دفعهم إلى هذا تنزيه ساحة إبراهيم أن يكون - وهو أبو الأنبياء - من والد مشرك، فاستعظموا الأمر، مع أن الأمر ليس فيه ما يخلُّ بمقام إبراهيم، أو ينقص قدره؛ فإن الهداية بيد الله؛ فزوجة فرعون كانت مؤمنة، وزوجة لوط كانت من الكافرين، وَوَلَدُ نوح كافر، وعمّ محمد أبو لهب في قعر جهنم.

وقد أخبر محمد المعصوم ﷺ أنَّ والد إبراهيم هو آزر، وذلك في الحديث الذي رواه البخاري عن النبي ﷺ أنه قال: «يلقى إبراهيمُ أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة وغبرة»؛ أي: سواد وغبار.

قال ابن كثير في التفسير: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ﴾ الآية: وهذا يدل على أنَّ اسم أبي إبراهيم «آزر»، وجمهور أهل النسب على أن اسم

أبيه «تارح»، وأهل الكتاب يقولون: «تارخ» بالخاء المعجمة. فقيل: إنه لُقّب بصنم كان يعبده اسمه آزر.

وقال الطبري: والصواب أن اسمه «آزر» كما ذكر القرآن، ولعل له اسمين، أحدهما اسم، والآخر لقب.

قلتُ: وأهل النسب في التاريخ العربي، من الكذابين، وهل هم أعلم من القرآن ومن محمد ﷺ، وكلٌّ علمهم بنسب الأنبياء السابقين أخذوه من التوراة؟!..

• دعا إبراهيم قومه إلى عبادة الله الواحد الأحد، ونبذ الأصنام، فلم يستجيبوا له، وأضمروا له الأذى. قال الله تعالى: ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ۝٧٠ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء، الآية: 70 - 71].

نجّاه الله من كيد الكافرين، بأن أوحى إليه بالهجرة؛ ليبث دعوة التوحيد بين قوم يقبلونها ويعملون بها، فاختار له الشام، واختار من الشام فلسطين، أو «أرض العرب الكنعانيين».

ونقل الإخباريّون عن كتاب يهود أنه نزل بعد خروجه من «كوثى» في «حرّان»[1]، وبقي حتى تُوفي أبوه.

وهذا خبر غير موثوق، ولا يُجعل في أحداث قصة إبراهيم؛ لأن التوراة هي المصدر الوحيد له، إلا أن يكون مرّ بها في طريقه واستراح فيها، بوصفها تقع في طريق القوافل، فلفظها كما رأينا بمعنى «الطريق»، وأهل «برزة» في ريف دمشق يقولون: إن إبراهيم مرّ بقريتهم، وله فيها مقام.

• وصل إبراهيم - عليه السلام - إلى «أرض كنعان»، أو «الأرض المباركة»، وكان هدفه متابعة الدعوة إلى الله، وليس امتلاك الأرض.. فالسكن في الوطن الجديد، يأتي تبعاً للهدف الأول.. وهو مثل واقع في جميع العصور: لقد هاجر النبيُّ

---

(1) تقع اليوم على نهر «بليخ» أحد روافد الفرات في الأراضي التركية. كانت تقع في طريق القوافل بين بابل وسواحل البحر الأبيض المتوسط، واسمها مشتق من اللهجة العربية الأكادية بلفظ: Kharanu. بمعنى: طريق.

محمدٌ إلى المدينة لمتابعة الدعوة، وهاجر أصحابهُ معه لمتابعة الدعوة، ثم استقرّوا في المدينة، وما زال الدعاة يهاجرون ثم يستقرون، وتكون لهم ذريّة، ويمتلكون بيوتاً . .

• والأرض التي بارك الله فيها للعالمين هي الشام بعامّة، وقد سماها رسول الله ﷺ: «مُهاجر إبراهيم» في قوله «ستكون هجرة بَعْد هجرة، فخيار أهل الأرض ألزمهم مهاجر إبراهيم . . » [فضائل الشام/ 82].

الهجرة الأولى: كانت إلى المدينة النبوية، وقد انقطعت بفتح مكة.

والهجرة الثانية الدائمة: هي الهجرة إلى الشام، مُهَاجر إبراهيم.

ولكن إبراهيم ـ عليه السلام ـ اختار من الشام فلسطين لتكون دار إقامة . . ومن المرجّح أن مستقرّه كان في منطقة مدينة الخليل . . وتتابع الناس يقولون: إنه مدفون في المدينة التي أعطاها لقبه «خليل الله».

وفي الآثار الإسلاميّة أن النبيّ ﷺ أقطع تميماً الداريّ أراضي في فلسطين منها: «بيت إبراهيم»، وهي الخليل. وقد توسعنا في دراسة هذا الإقطاع في كتابنا «تميم الداري، راهب أهل عصره وعابد أهل فلسطين» في سلسلة «أعلام المسلمين» التي تنشرها «دار القلم» الشاميّة الدمشقية.

• جاء إبراهيم ـ عليه السلام ـ إلى «أرض كنعان»، ومعه ابن أخيه «لوط»، وزوجه «سارة»، ولم يكن له وَلَدٌ . . فزوجه سارة كانت عقيماً، فتزوّج امرأة عربية فلسطينية (من أرض كنعان)، فولدت له بكْره «إسماعيل» على أرض فلسطين.

وقلتُ: «امرأة عربية فلسطينية»؛ لأنها كانت كذلك.

ولا تلتفتن لأقوال المفسرين والمؤرخين العرب الذين اتبعوا التوراة، فنقلوا عنها أنها «جارية مصرية»؛ فقصة هاجر، أو «آجر» كما رواها البخاري في صحيحه [كتاب الأنبياء] أن إبراهيم وسارة، أتيا «على جبّار من الجبابرة» يعني: كانا في حمى مملكته، وكانت سارة «من أحسن الناس» جمالاً، فأخبر الجواسيس الملك بوجود سارة، فأراد بها شرّاً، (فلما دخلت عليه، ذهب يتناولها بيده، فأُخِذَ)؛ أي: شَلّت يده، فقال لها: «ادعي الله لي ولا أضرك»، فدعتْ، فأطلق، فدعا بعض حجبته فقال: إنكم لم تأتوني بإنسان، إنما أتيتموني بشيطان، فأخدمَها هاجر.

وفي هذا السياق :

• أنهما أتيا على جبار من الجبابرة : يعني ملك من الملوك في ذلك الزمان ، وكانت المملكة في ذلك الزمان بمقدار مدينة وضواحيها ، أو مملكة المدينة ، وفي فلسطين عدد كبير من الممالك ، وكلّ ملك جبار ، بل كانت الممالك الكنعانية أو ممالك العماليق تمتدُّ إلى سيناء فتأخذ جزءاً كبيراً من شمالها . وكانت هذه الممالك كلها عربية ، وربما وصفت بأنها مصريّة ؛ لأن هذه الممالك الصغيرة الضعيفة كانت تخضع في كثير من الأزمنة للسلطان المصري ، وكان إبراهيم مقيماً في نواحي مدينة الخليل ، وأقرب الممالك إليه هي التي كانت تقوم في نواحي غزة وبئر السبع وسيناء . . وفي رواية : أنه ذهب إلى «مملكة جرار» ، وتقع إلى الجنوب الشرقي من غزة في نواحي دير البلح ، ويعرف موقعها «بخربة أم جرار» ، ولذلك ذكروا في اسم هذا الجبار روايات ، والأسماء كلها عربية : فقيل : اسمه : عمرو بن امرئ القيس ، وقيل : اسمه سنان بن علوان بن عبيد . . ، وقيل : اسمه : صادوق ، وكان على الأردن .

• وقال : «فأخدمها هاجر» ، وذلك عندما ظهرت كرامات سارة عنده ، واستجابة الإله لدعائها ، صارت عنده بمنزلة «القديسات» ، فأحبَّ أن يكرمها بمَنْ يقضي حاجاتها البيتيّة ، فطلب من فتاة في قصره أن تكون خادماً لها ـ الخادم : للمذكر والمؤنث ـ وليسَ كلُّ خادم عبداً . ففي مثل حال سارة وما ظهر من كرامتها ، يتسابق الناسُ الأحرار لخدمتها لنيل بركتها ؛ فقد كان أنس بن مالك خادم رسول الله ، وكان حُرّاً ، وكان يَشْرُف أن يقال له : «خادم رسول الله» ، وليسَ كلُّ مَنْ كان من الخدم في قصور الملوك ، وفي بيوت الناس ، عبيداً من سوق النخاسة ، فالحروب كانت تتمخض عن قَتْل وأَسْر . . والأسرى والسبايا ليسوا عبيداً ، وإنْ عدهم الآسرُ عبيداً . وكان زيد بن حارثة عربياً من بني كلب ، أُسر في غزوات العرب بعضهم على بعض ، فوصل إلى بيت خديجة ، فوهبته لخدمة رسول الله ﷺ . وكم من عالمٍ أو وليّ يتسابق الأتباع لخدمتهم . . بل يتسابق بعضهم ليكون خادماً في مقام وليّ أو نَبيّ ، فيقال : فلان خادم السروجي ، أو خادم الشيخ محيي الدين . وفي الألقاب الموجودة في أيامنا «فلان خدّام الجامع» .